

الواقعية في الفكر السياسي عند الغزالي

د. عبد الحكيم حسان (*)

ورث القرن الخامس الهجري عن القرن الرابع ظاهرتين كان لهما تأثيرهما الواضح في الفكر السياسي عند الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ). وإحدى هاتين الظاهرتين ثقافية وهي تعدد العناصر التي تألفت منها الثقافة العربية الإسلامية. ففي خلال القرون السابقة على القرون الخامس بدأت واكتملت عملية الاستيعاب الثقافي التي أغتنت فيها الثقافة العربية الإسلامية بعناصر ثقافية أجنبية فارسية وإغريقية وهندية وسامية بل ومسيحية ويهودية. وقد تم هذا عن طريق الترجمة من جانب وعن طريق الاتصال المباشر باختلاط الأجناس التي تألف منها المجتمع الإسلامي من جانب آخر. ولم تكن هذه العناصر الثقافية الأجنبية تتفق كلها مع مبادئ الشريعة الإسلامية أو قيم الحياة العربية. ولم تتم عملية التوفيق بين العناصر الثقافية المتنافرة - والتي كان لابد منها لقيام بناء ثقافي متكامل - بطريقة واحدة. فقد سلكت كل طائفة، وأحياناً كل مفكر، في سبيل هذا التوفيق طريقاً خاصاً يختلف كثيراً أو قليلاً عن الطرق التي سلكها غيره وذلك حسب متطلبات العقيدة الخاصة أو المذهب أو الاتجاه الفكري أو الواقع. وسيتبين لنا هذا بوضوح في الفكر السياسي عند الغزالي عما قريب. أما الظاهرة الثانية التي ورثها القرن الخامس عن القرن

(*) أستاذ الأدب المقارن بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

الرابع فسياسية وتنتمى في ضعف الخلافة العباسية التي كانت قد فرضت سيطرتها السياسية والدينية على معظم أفكار العالم الإسلامي إلى بدايات القرن الثالث الهجري. وإذا كان الضعف السياسي قد بدأ يذب في أوصال الخلافة العباسية قبيل منتصف القرن الثالث بسبب غلبة العنصر التركي على شئونها ونمو الدويلات التي تمتعت بعدد كبير من الاستقلال الذاتي في ظل الخلافة فإن ضعفاً آخر طرأ في القرن الرابع وهدد السلطتين السياسية والدينية معاً للخلافة العباسية وهو ذلك المد الشيعي الذي انتشر في كثير من مناطق العالم الإسلامي وبلغ قمته بقيام الخلافة الفاطمية في شمال أفريقية ومصر والشام. وهكذا دب الضعف في السلطتين السياسية والدينية للخلافة العباسية وسوف يتبين لنا بعد قليل أن قلق الغزالي على تدهور السلطة الدينية للخلافة العباسية كان شديداً وأن حرصه على بقاء هذه السلطة للخلافة السنية كان قوياً وهناك ظاهرة ثالثة جرت في القرن الخامس وكان لها تأثيرها على الفكر السياسي للغزالي. تلك الظاهرة هي نمو سلطة السلاجقة وسيطرتهم سياسياً على إيران والعراق وتبعيتهم من الناحية الدينية للخليفة العباسي رأس أهل السنة والجماعة في ذلك الحين. لقد حصل السلاجقة بعد دخولهم بغداد على اعتراف الخليفة الذي بارك سلطانهم ومنحه الألقاب الرسمية وافر بسلطته السياسية والإدارية على المناطق التي سيطر عليها. وهكذا وجد الغزالي الفقيه السني نفسه وجهاً لوجه أمام سلطتين تحكمان العالم الإسلامي. إحداهما سياسية وهي سلطة السلاجقة والأخرى دينية وهي سلطة الخليفة العباسي. ولقد كان لهذه الأزواجية التي لم تكن من سمات الدولة الإسلامية من قبل تأثيرها على الفكر السياسي للغزالي فانعكست عليه كما سنرى بعد قليل.

* * * * *

لقد تفرع الفكر السياسي في الحضارة الإسلامية فروعاً ثلاثة لكل منها منهجه ومصادره وطائفة من المتخصصين يكتبون فيه. وأول هذه الفروع نظرية الخلافة ومنهجها الاعتماد على الأدلة الشرعية في استنباط الأحكام ومصادرها هي ذاتها مصادر التشريع الإسلامي المعروفة والمتخصصون فيها هم الفقهاء. وربما يكون كتاب الأحكام السلطانية للماوردي أصدق صورة لما انتهت إليه آراء الفقهاء المسلمين في الخلافة، كما أن تعريف ابن خلدون الذي أورده في مقدمته للخلافة وهي أنها القيام على أمر الدين وسياسة الدنيا به من أدق التعريفات التي وضعت لها وهو يدل على أن الخلافة نمط إسلامي خاص من الحكم يختلف عن كل أنظمة الحكم التي عرفها التاريخ من قبل وأن نظرية الفقهاء في الخلافة لا تتأثر بأي فكر سياسي غير إسلامي. والفرع الثاني للفكر السياسي في الحضارة الإسلامية هو الفلسفة السياسية ومنهجها التأمل ومصدرها الرئيسي الفكر اليوناني والمتخصصون فيه هم الفلاسفة المسلمون الذين جاهدوا أن يوفقوا بين الفكر الأغريقي وتعاليم الإسلام، ومن أكمل الأمثلة في هذا الباب كتاب "آراء أهل المدينة الفاضلة" للغزالي. أما الفرع الثالث فهو أدب الأخلاق السياسية أو الأدب الذي يتناول أخلاق الطبقة الحاكمة وهو لا يسمى فكسراً إلا بقدر ما يكون في الأدب من عنصر فكري وإلا فهو في الأعم الأغلب ذو طابع فني جمالي واضح ويعتمد بشكل أساسي على المأثور من ناحية وعلى التجربة العملية من ناحية أخرى. والمصدر الأساسي لهذا الفرع الأدب البهلوي أو الفارسي المتوسط الذي ساد في إيران في ظل حكم الدولة الساسانية. وأصحابه الأدباء من كتاب العربية ورائدهم في ذلك عبد الله بن المقفع الذي يعد واضع أسس هذا اللون الأدبي في النثر العربي وكتابه "الأدب الكبير" أبرز مؤلفاته في هذا الاتجاه. ونظراً لاستقلال كل فرع من هذه الفروع الثلاثة للكتابة السياسية عن الفرعين الآخرين منهجاً ومادة ومصدراً فقد فرضت ظاهرة التخصص نفسها على الكاتبين فيها؛ بمعنى أن الكاتب في فروع منها لا يكتب في أي من الفرعين الآخرين. غير أن الغزالي بعد استثناء من هذه القاعدة. فقد فرض عليه

الواقع السياسية في عصره أن يعالج القضايا السياسية من وجهة نظر الفقهاء فيكتب في نظرية الخلافة بوصفه فقيها وأن يعالجها مرة أخرى من وجهة نظر الأدباء فيكتب في أخلاق الطبقة الحاكمة معتمداً على التقاليد الأدبية الفارسية.

* * * * *

تثبت آراء الغزالي في الخلافة في كثير من كتبه مثل "إحياء علوم الدين" (الكتاب الثاني - القسم الثالث) و "الاقتصاد في الاعتقاد" (الفصل الثالث) و "المستظهر" (الفصل التاسع). غير أن عرضه للخلافة في هذا الكتاب الأخير كان أكثر اتصالاً بواقع الخلافة العباسية في عصره. فقد ألف الغزالي كتاب "المستظهر" ليبين فيه استحقاق المستظهر للخلافة التي وليها في محرم سنة ٤٨٧ هـ وهو لا يزال في السادسة عشرة من عمره وفي وقت كان تحدي الباطنية للعباسيين على أشده. لهذا خصص الغزالي الفصول الثمانية الأولى من الكتاب للرد على مزاعم الباطنية وبيان خروجهم من رتبة الإسلام واستحقاقهم القتل بوصفهم مرتدين. ثم ناقش الخلافة واستحقاق المستظهر إياها في الفصل التاسع وقم في الفصل العاشر والأخيرة نصيحة للخليفة على طريقة الأدباء في عرض المثل الأخلاقية العليا للطبقة الحاكمة وإن كانت نصائحه في هذا الفصل إسلامية الطابع (وليس فارسية) مع اهتمام واضح بإتباع الشريعة واستشارة العلماء فهذا ما يتفق ومقام خليفة المسلمين. وفي حديثه عن الخلافة في الفصل التاسع يبين الغزالي أن الخلافة نظام سياسي إسلامي حددت معالمه الشريعة. فبعد وفاة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه سارع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين إلى اختيار أبي بكر خليفة على المسلمين ثم انعقد الإجماع بعد ذلك على أن كل ما يتعلق بالحكم من سلطات ينبغي أن يكون الرجوع فيه إلى إمام معترف به من جماعة المسلمين. ولقد كان المستظهر من وجهة نظر الغزالي هو ذلك الإمام نظراً لتحقيق الشروط الضرورية للإمامة فيه، ولأنه كذلك مؤيد من قبل القوة العسكرية القادرة على التنفيذ في عصره (وهي قوة السلاجقة)، ولأنه أخيراً معترف به من قبل غالبية المسلمين. وإذا كان الفقهاء

المسلمون قد اشترطوا حتى في حالة تعيين الخليفة من قبل خليفة سابق أن تتم له بيعه من يمثلون جماعة المسلمين الذين أطلق عليهم (أهل الحل والعقد) فإن آراءهم قد اختلفت في أقل عدد يمكن أن تتم به البيعة. ومن الناحية العلمية كان العلماء والكبراء في عاصمة الخلافة هم الذين يمثلون أهل الحل والعقد ومن ثم تتعقد بهم البيعة للخليفة. ويتضمن قبول الخليفة للبيعة التزامه إزاء المجتمع الإسلامي بالقيام بالواجبات التي حددها الفقهاء وبذلك تلتزم الجماعة الإسلامية بطاعته. غير أن ضعف الخلافة العباسية جعل الفقهاء يواجهون واقعاً لا عهد لهم به من قبل. فقد حرم هذا الضعف الخلفاء العباسيين آنذاك من شرط هام من شروط استحقاق الخلافة وهو القوة العسكرية التي تمكنهم من حماية دار الإسلام. إلا أن الغزالي انتهى إلى أن فقد المستظهر لهذا الشرط يمكن التناقص عنه، لأن السبب إنما جاء من غلبة أمير مسلم على مقدرات الخلافة. ففوة هذا الأمير تعد تعويضاً عن ضعف القدرة العسكرية للخلافة. فالسلاجقة الأتراك الذين ملكوا هذه القوة دانوا للخليفة العباسي بالولاء وناصروه لأنهم منحوا الشرعية من قبله. وإذا كانوا قد خرجوا على طاعته أو تجاوزوا حقوقهم أحياناً فأنهم كانوا مع ذلك يعترفون بأن واجبهم الديني أن يدينوا له بالطاعة وأن يقوموا على سبيله والدفاع عنه. ولهذا لا يحدد الغزالي - كما يفعل الماوردي مثلاً - واجبات معينة يطالب الخليفة، بالقيام بها ولا يشير إلى أن البيعة التي في عنقه للمسلمين تفرض عليه الالتزام بها. فمن الواضح أنه يرى أن مهام الحكم ليست موكولة إلى الخليفة وإنما هي موكولة إلى الأتراك والوزراء والكتاب والعلماء. ولهذا نرى السلطان في "تصيحة الملوك" للغزالي يقوم بأعباء الحكم كما قام بها ملوك الساسانيين وخلفاء المسلمين الأوائل. وإلى هذا السلطان - لا إلى الخليفة العباسي المعاصر - يتجه الغزالي بالنصيحة التي يستمدّها من تقاليد الحكم الفارسي مغلفة بتعاليم الإسلام. وفي الوقت نفسه يرى أن من الضروري أن يعمل ذلك الجهاز الذي يضطلع بمهام الحكم والإدارة بالفعل من قادة عسكريين ووزراء وكتاب وعلماء جميعاً من أجل صالح الدين وأن يدينوا بالطاعة للخليفة

بوصفه الرمز الحي للشرعية والسنة والوحدة الإسلامية. من هنا يتبين أن نظرية الغزالي في الملك تعد جزءاً لا يتجزأ من نظرية في الخلافة لا تكتمل هذه إلا بتلك ولا تفهم الثانية إلا بالأولى — وإذا كان فكره في نظريته عن الخلافة يتسم بالمثالية لارتباطه بالإسلام فإن فكرة السياسي في نظريته في الملك يتسم بالواقعية وهو ما يتضح في كتابة "نصيحة الملوك".

* * * * *

ضمن الغزالي نظريته في الملك كتابة "نصيحة الملوك" الذي ألفه بالفارسية على طريقة الأدباء سنة ٥٠٣هـ أو بعد ذلك بقليل. وقد كتب هذا الكتاب للأمير السلجوقي سنجر الذي كان والياً على خراسان^(١) من قبل أخيه السلطان السلجوقي محمد بن ملك شاه. وفي خلال مدة لا تزيد على قرن من الزمان ظهرت للكتاب ترجمة عربية بعنوان "التبر الميوك في نصيحة الملوك". واشتهرت هذه الترجمة في العصرين المملوكي والعثماني^(٢) في حين خمدت شهرة الأصل الفارسي وهو "نصيحة الملوك". ولقد كان هذا سبباً في الخلط في عنواني الكتابين ومؤلفيهما إذ ظن أن الغزالي هو مؤلف "التبر الميوك في نصيحة الملوك". ويظهر أن هذا الخلط حدث في وقت مبكر فأين خلكان الذي عاش بعد ظهور الترجمة العربية بقليل يحاول أن يوضح القضية في ترجمته لابن المستوفي فينسب الترجمة العربية وهي "التبر الميوك في نصيحة الملوك" إلى عم ابن المستوفي صفى الدين أبي الحسن علي بن مبارك ويقرر أن الغزالي

(١) ولد سنجر بن ملكشاه السلجوقي سنة ٤٧٩هـ سنجار بأسيا الصغرى. وقد أعلن ملكاً على بغداد سنة ٥١١هـ بعد أن حكم خراسان عشرين عاماً. وقد اتسم عهده في أزمته بالاضطراب بسبب ثورة "اتسيز خوارزمشاه" والهزائم التي منى بها على يد الترك والغز الذين أصبح أسيراً في أيديهم من الناحية العملية. ثم حاول بعد تحرره أن يجمع جيشاً ولكنه مات غماً لخراب مملكته سنة ٥٥١هـ أو سنة ٥٥٢هـ.

(2) See, F.R.C. Bagley, Counsels for kings (O.U.P.1964) introduction P. xix.

هو الذي ألف "نصيحة الملوك" بالفارسية لا غير^(١). ولقد استمر الخط في عناوين الكتابين الفارسي والعربي إلى العصر الحاضر. فحاجي خليفة - على سبيل المثال - يتحدث عن الكتابين في مكانين من كتابه "كشف الظنون" فيتحدث في أولهما عن "التبر المسبوك في نصيحة الملوك" مؤكداً أنه كتاب فارسي ألفه الغزالي^(٢). ويتحدث في ثانيها عن "نصيحة الملوك" فيقول إنه هو "التبر المسبوك في نصيحة الملوك" الذي ألفه الغزالي بالفارسية^(٣). وقد تبعه في ذلك عدد من المؤلفين المحدثين الذين أطلقوا على النص الفارسي خطأ "التبر المسبوك"^(٤) بدلا من العنوان الحقيقي الذي وضعه الغزالي لكتابه وهو "نصيحة الملوك" والذي أشار به أحد أحفاده من بعده إلى الكتاب نفسه في مجلد ضم كتابات للغزالي وسماه "فضائل الأمام في رسائل حجة الإسلام"^(٥) ما أثبتته صراحة ابن خلكان كما تقدم. ومن هذا يتضح أن حاجي خليفة قد خلط بني النصين. وتتضمن بعض نسخ الترجمة العربية إهداء إلى "ملك المشرق والمغرب" وهو لقب أطلقه الخليفة القائم على طغرلبيك ثم حرص الحكام السلاجقة على الحصول عليه بعد ذلك إذ أصبح رمزاً لاعتراف الخليفة بهم^(٦). ويبدو أن هذا هو السبب الذي دفع بحاجي خليفة إلى أن يقول إن الغزالي ألف "التبر المسبوك" [كذا] للسلطان محمد بن ملكشاه^(٧). إلا أن المخطوطة التي استخدمها جلال همائي في نشر النص الفارسي (نصيحة الملوك) تتضمن إهداء إلى "ملك المشرق"^(٨) ويثير هذا شكاً

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان (باريس ١٨٣٨) ج١، ص ٦٢٢.

(٢) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١٩٤٣) ج١، ص ٢٣٧.

(٣) نفس المرجع ج٢، ص ١٩٥٨.

(٤) انظر: جلال همائي في مقدمة نشرته لنصيحة الملوك (طهران ١٣١٥ - ١٣١٧ هجري

شمس) ص

(٥) انظر: فضائل الإسلام من رسائل حجة الإسلام (تحقيق عباس إقبال. طهران" ص ٦

(6) Bagley, P.P. XVI - XVII

(٧) حاجي خليفة ج١، ص ٢٣٧.

(٨) نصيحة الملوك، ص ١

حول إهداء "نصيحة الملوك" إلى السلطان محمد بن ملكشاه الذي ما كان يمكن أن يخاطب بلقب "ملك المشرق" لأن السلطان السلجوقي لم يكن يخاطب إلا بأحد لقبين أحدهما "ملك المشرق والمغرب" وثانيهما "ملك العالم" ^(١) ويقصد بالعالم هنا ملك السلاجقة كله. إن كلمة المشرق تطلق في إيران على المناطق الشرقية منها وبخاصة خراسان. وبناء على ذلك فإن لقب "ملك المشرق" يقصد به في نصيحة الملوك سنجر الذي كان حاكماً على خراسان والذي استأنف الغزالي نشاطه في التدريس بناء على أمر منه، وكان ذلك في نيسابور سنة ٤٩٩ هـ. ومما يؤيد ذلك أن الغزالي يشير إلى سنجر بلقب "ملك المشرق" في إحدى رسائله التي وجهها إليه سنة ٥٠٣ هـ ^(٢). هذا بالإضافة إلى أن حفيد الغزالي الذي جمع رسائله في كتاب بعنوان "فضائل الإمام" يقول صراحة إن الغزالي كتب "نصيحة الملوك" لسنجر. ويقول تعليقا على ظروف كتابة إحدى الرسائل في المجموعة المشار إليها إن جدلاً دار في حضرة سنجر بين الغزالي وبين بعض الفقهاء وأن الغزالي رد التهم التي وجهوها إليه ببلاغة أثارت إعجاب سنجر الذي أموه أن يكتب كلام ويبعث به إليه. وحين تلقى سنجر كلام الغزالي مكتوباً قدم له هدية. فرد الغزالي على ذلك بأن ألف له "نصيحة الملوك" وأهداه إليه إظهاراً لامتنانه ^(٣).

وفي "فضائل الأيام" ما يشير أيضاً إلى تاريخ تأليف "نصيحة الملوك". ففي إحدى رسائل الغزالي التي ضمنها هذه المجموعة رسالة وجهها الغزالي إلى سنجر قبيل تأليفه "نصيحة الملوك" كما ينص على ذلك مصنف الرسائل. وفي هذه الرسالة يذكر الغزالي أنه قد بلغ الثالثة والخمسين من عمره ^(٤). ولما

(١) أطلق الراوندي في كتابه "راحة الصدور" لقب "ملك العالم" على طفرابك انظر :
Aliterary History of Persia. (1926), II, P. 303.

(٢) فضائل الإمام من رسائل حجة الإسلام ص ٤

(٣) نظر : فضائل الإمام، ص ١١

(٤) نفس المرجع، ص ٤

كان الغزالي قد توفي سنة ٥٠٥هـ عن خمسة وخمسين عاماً كما تذكر المراجع المختلفة فإن تاريخ كتابة هذه الرسالة يكون سنة ٥٠٣-٥٠٥هـ. وليس هناك من سبيل إلى التشكك في أن الغزالي هو مؤلف "تصيحة الملوك" إذ أنه يشير فيه إلى كتاب "إحياء علوم الدين" على أنه من تأليفه^(١). هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن المؤلف قد اعتمد في كتابة الفصلين الأولين من "تصيحة الملوك" على كتاب "كيمياء السعادة" للغزالي اعتماداً يوحى بأنه هو مؤلفه. فأصول الإيمان العشرة كما وردت في "تصيحة الملوك" (ص ٣-٧) قريبة جداً من أركان الإيمان العشرة المذكورة في القسم الأول من "كيمياء السعادة"، كما أن لمبادئ العشرة للسلوك الملكي تبدو وكأنها تفصيل للقسم العاشر من العماد الثاني من "كيمياء السعادة" كما أن المبادئ العشرة للسلوك الملكي تبدو وكأنها تفصيل للقسم العاشر من العماد الثاني من "كيمياء السعادة". وكذلك فإن كثيراً من الأقوال المأثورة والقصص الموضحة لفروع شجرة الإيمان في "تصيحة الملوك" وكذلك النبعان اللذان يرويان هذه الشجرة كل ذلك مأخوذ من "كيمياء السعادة" أيضاً^(٢) مما يؤكد أن العملين لمؤلف واحد. وأخيراً فإن تأثر نصيحة الملوك، يؤكد على أسس أسلوبية أن "تصيحة الملوك" لابد أن تكون بقلم المؤلف الذي كتب "كيمياء السعادة"^(٣) وهو الغزالي.

* * * * *

إن "تصيحة الملوك" ليعكس بوضوح الثقافة الواسعة المتنوعة العناصر التي عرف بها الغزالي الفقيه الورع الذي ينحدر من أصل فارسي والذي عاش ومات في إيران والذي وقف على العناصر الثقافية المتعددة لعصره وقوف المتأني المبصر. ومن هنا ضم "تصيحة الملوك" بالإضافة إلى الثقافة العربية الإسلامية عناصر ثقافية ترجع إلى أصول فارسية وهندية وإغريقية وهيلينية

(١) نصيحة الملوك ، ص ٢٠

(٢) انظر : Bagley, PP. XXIV - XXV

(٣) نصيحة الملوك (مقدمة الناشر)، ص هـ

ويهودية - مسيحية، وإن كان الغزالي يصهر هذه العناصر المتعددة في بوتقة من القالب الفكري الذي غلب عليه في أخريات حياته وهو قالب الزهد.

لقد عرف عن الغزالي اهتمامه بالفكر الإغريقي "أثناء بحثه المضني عن المنهج الصحيح للمعرفة. وبالرغم من أن بحثه هذا انتهى به إلى رفض منهج الفلاسفة فإن ذلك لا ينفي أن معرفته بقضاياهم وأساليب تفكيرهم قد بقيت معه وأنها كونت عنصراً من أهم العناصر التي أسهمت في التكوين الثقافي للغزالي. لذلك نرى الغزالي يخصص فصلاً في "نصيحة الملوك" للعقل وإن كان علاجه لموضوع العقل قد قام على أسس دينية باعتبار أن العقل يشكل أساس المسؤولية الدينية. والغزالي، كعادته في فصول أخرى من الكتاب، يروي لتأييد وجهة نظره أحاديث غير صحيحة ويؤخذ من الأقوال والحكايات التي يسوقها في هذا الصدد أنه لا يقصد بالعقل أكثر من الذكاء^(١). وسيتبين لنا في حينه أن بعض آراء الغزالي في العدل وجانباً من وجهة نظره في النور الإلهي ترجع إلى التراث الإغريقي أيضاً. وبالإضافة إلى المادة الإغريقية الخالصة يستخدم الغزالي كثيراً مادة هيلينية (إغريقية متأخرة مختلطة بعناصر أجنبية) تعليمية لكنه ينسبها إلى شخصيات إغريقية مشهورة مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو والإسكندر وجالينوس وغيرهم. ومن الواضح أن استخدام الغزالي لهذه المادة ونسبته أياها إلى فلاسفة رفض من قبل طريقتهم في البحث وحكم عليهم بالتهاوت ليدل فيما يلدل على تساهل الغزالي في توثيق مآثره من ناحية وعلى سعة انتشار هذه المادة في الأدبين العربي والفارسي لعهد من ناحية أخرى. لقد اعتمد الغزالي كثيراً على إسرائيليات ومواد ترجع إلى الكتاب المقدس نظراً لنزعه الصوفية. فقد اقتبس كثيراً من الأقوال التي تنسب إلى أنبياء بني إسرائيل، وبخاصة عيسى عليه السلام. لقد وجدت هذه المادة طريقها إلى الثقافة العربية الإسلامية قبل الغزالي بزمان بعيد ربما منذ القرن الأول للهجرة وامتزجت ببعض فروع المعرفة العربية الإسلامية ومنها الأدب الصوفي.

(١) نصيحة الملوك، ص ١٣٦

ونستطيع أن ندرك مدى اعتماد الغزالي على هذه المادة في "نصيحة الملوك" إذا عرفنا أن الفصلين الأولين من الكتاب يتألفان جملة من هذه المادة ولا تشكل الثقافة الإسلامية الخالصة من هذين الفصلين إلا الإطار العام.

إن المبادئ للخلفية التي تركز عليها أخلاق الطبقة الحاكمة في "نصيحة الملوك" مستمدة أساساً من الثقافة الفارسية. وهذه الظاهرة ليست خاصة بـ "نصيحة الملوك" وإنما تشاركها فيها كل الأعمال الأدبية التي تنتمي إلى هذا الجنس الأدبي في الأدبيين العربي الفارسي. ويرجع ذلك إلى أنه لا تقاليد الحياة العربية الجاهلية ولا تعاليم الإسلام تعترف بمبادئ وقيم خلفية خاصة بالطبقة الحاكمة دون غيرها من طبقات المجتمع. فكل منهما يسوي بين السادة والسوقة فيما يتصل بمبادئ الأخلاق فلا فرق بين هؤلاء وأولئك اللهم إلا في درجة المسؤولية الخلفية التي تعظم بالنسبة للحاكم أو السيد. أما التفريق من حيث مبدأ المسؤولية الخلفية في ذاته فقد وجد في إيران قبل الإسلام حيث كان للطبقة الحاكمة. من القيم والمبادئ الخلفية ما لم تطالب به العامة. وقد أصبح ذلك جزءاً من الثقافة الفارسية انتقل معها إلى الثقافة العربية الإسلامية منذ القرن الثاني للهجرة وأصبح موضوعاً لجنس معين من أجناس النثر الفني العربي وضع أسسه عبد الله بن المقفع في كتابه "الأدب الكبير" وتبعه في ذلك أعلام أدباء العربية من أمثال ابن قتيبة وابن عبد ربه والطرطوشي وغيرهم. وحين بدأ النثر الفني الفارسي تطوره في القرن الرابع تم ذلك التطور تحت رعاية الأدب العربي من ناحية وباستحياء بعض النماذج النثرية في الأدب اليهودي من ناحية أخرى. وبذلك أصبحت المصادر التي يستمد منها الكتاب الفرس مادتهم في كتب أخلاق الطبقة الحاكمة بعضها يهودي وبعضها عربي. غير أن اهتمام الغزالي في "نصيحة الملوك" بالتعليم غلب على اهتمامه بتوثيق مادته ولذلك جاءت إشاراتهِ إلى مراجعه قليلة وغير دقيقة. لم يشر من مراجعه اليهودية إلا إلى "سير الملوك"^(١) و"كتب وصاياها"^(٢) و"أمثالها"^(٣) يقصد الفرس. كما يشير إلى "عهد

(١) نصيحة الملوك، ص ٦٥

أردوسيز^(٣) و"وصية شايور"^(٤) و"وصية ايرويز إلى ابنه"^(٥) و"وصية انوشروان إلى ابنه"^(٦). ولم يشر من مصادر مادته الأغريقية والهيلينية إلا إلى مصدرين فقط هما وصية منسوبة إلى أرسط^(٧) و"كتاب الأدوية" المنسوب إلى جالينوس^(٨). في حين لم يشر إلى مصدر واحد من مصادر مادته الهندية ولا مادته اليهودية - المسيحية. والذي يبدو أن المصادر التي أشار إليها الغزالي قرأها مترجمة إلى اللغة العربية أو إلى اللغة الفارسية، إذ لم يعرف عن الغزالي أنه كان يجيد غير هاتين اللغتين. أما مصادر المادة العربية الإسلامية فلم يذكر الغزالي منها إلا "إحياء علوم الدين"^(٩). و "سير الملوك" وهو كتاب نظام الملك الوزير السجلوقي المشهور ويعرف بـ "سياستنامه"^(١٠) وكتاب "القلاند والفرائد" للأهوازي^(١١) وأمثال أبي عبيدة^(١٢). غير أن الغزالي اعتمد على مراجع أخرى لم يشر إليها. فقد رجع - كما يظهر من كتابه - إلى كتابه "كيمياء السعادة" و"كيلة ودمنة" لابن المقفع و"كتاب التاج" المنسوب للجاحظ و "المحاسن والأضداد" المنسوب إليه أيضاً و "مروج الذهب" للسعودي و"قوت القلوب" لأبي طالب المكي و"الرسالة" للقشيري و"تاريخ البرامكة" وهو كتاب مجهول المؤلف، و"ألف ليلة وليلة". ويبين هذا أن الغزالي اعتمد على مصادر عربية أكثر مما اعتمد على مصادر فارسية خلاصة وهو مخفي طبيعى بالنسبة لهذا الوقت المبكر (١) نفس المرجع ص ٥٥ ويشير هنا أيضاً إلى كتب المتقدمين وحكاياتهم وسيرهم.

(٢) نفس المرجع ص ٨٤

(٣) نصيحة الملوك، ص ٤٠

(٤) نفس المرجع، ص ٤١

(٥) نفس المرجع، ص ٤١

(٦) نفس المرجع، ص ٤١

(٧) نفس المرجع، ص ١٣٦

(٨) نفس المرجع، ص ١٣٦

(٩) نفس المرجع، ص ٢٦

(١٠) نفس المرجع، ص ٥٥

(١١) نفس المرجع، ص ٣٢

(١٢) نفس المرجع، ص ٣٢

على مصادر فارسية حديثة وهو شيء طبيعي بالنسبة لهذا الوقت المبكر من تاريخ الأدب الفارسي الحديث. ويؤكد استخدام الغزالي لألف ليلة وليلة ما أشرنا إليه من قبل من عدم اهتمام الغزالي بتوثيق مآثره لأن التعليم هو هدفه الأساسي. والأهمية عنده للمادة لا لقائلها، ولهذا لا يرى بأساً من أن ينسب قولاً غير صحيح إلى قائل ما كان ينسب إلى برز جمهر قولاً إسلامياً. غير أن الغزالي استطاع أن يصهر هذه المادة الأدبية المتنوعة وأن يصوغها صباغة إسلامية أضفت على "نصيحة الملوك" طابعاً إسلامياً لا يمكن أن تخطئه عين القارئ. فالفضائل الأولان يخصصهما الغزالي للإيمان والعبادة. وموضوع الفضائل مستمد من علم الكلام والتصوف. أما مآثرهما فإسلامية مطعمة ببعض نصوص من الكتاب المقدس^(١). ينظر الغزالي إلى أعمال الحاكم في هذين الفضلين من خلال موقفه من العبادة التي يتقرب العبد بها إلى الله عز وجل. ولقد كان من الطبيعي بالنسبة لمؤلف في مكانه الغزالي أن تكون "التقوي" في "نصيحة الملوك" أقوى منها في أي كتاب مماثل آخر من كتب أخلاق الطبقة الحاكمة في الأبيين العربي والفارسي. فالغزالي يرسم للحاكم برنامجاً للعبادة عليه أن يؤديه كل يوم جمعه يتألف من الصوم والصلاة والقراءة أو ملازمة الصمت^(٢). ويدعوه أن يتذكر الموت واليوم الآخر وما به من حساب ويصور له الدنيا في عشر صور بالغة التعبير^(٣). وباختصار فإن "نصيحة الملوك" يعبق بذلك الجو التعبدي المنصرف عن الدنيا الذي عرف به الغزالي المتصوف الذي أبى إلا أن يصوغ كتابة هذا في أسلوب وعظي يميزه عن غيره مما كتب في بابيه.

* * * * *

إن لكتاب "نصيحة الملوك" من بين كتب أخلاق الطبقة الحاكمة في الأبيين العربي والفارسي أهمية خاصة ترجع إلى أنه يمثل آخر المراحل التي مر خلالها اندماج التقاليد السياسية الفارسية القديمة وتمثلها في الفكر الإسلامي

(١) نصيحة الملوك، ص ٨

(٢) نفس المرجع، ٢-٣

(٣) نفس المرجع ص ٢٦-٣٢

ليكون الاثنان معا تراثاً إسلامياً واحداً من الفكر السياسي تعترف به المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي. وقد كان هذا التحول الهام الذي تم في منتصف القرن الخامس للهجرة صدق للواقع السياسي في المجتمع الإسلامي بصفة عامة وفي إيران بصفة خاصة. فقد انعقد في ذلك الوقت تحالف بين المؤسسات الدينية والمؤسسات السياسية. فمذ أولائل القرن الخامس للهجرة أخذ الشافعية يقيمون تلك الكليات الجامعة الإسلامية (المعروفة باسم المدارس) مقلدين بذلك المؤسسات الفاطمية للدعوة إلى المذهب الشيعي. وإلى جانب الهدف الديني لإقامة هذه المدارس كان لها هدف سياسي أيضاً هو تحرير الخلافة العباسية السنية من العناصر الشيعية. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف أقام قادة السنة ما يمكن أن يسمى تحالفاً مع قادة السلاجقة، وهو تحالف حظي باعتراف رسمي من قبل الخليفة العباسي نفسه بعد أن فتح السلاجقة إيران والعراق. وقد ازدادت الصلات بين المؤسسات الدينية والمؤسسات السياسية (طرفي هذا التحالف) قرباً في ظل السلاجقة بفضل جهود ذلك الوزير الخطير نظام الملك مؤسس المدارس النظامية في كثير من حواضر الأقاليم الإسلامية. فلم تكن هذه المدارس مجرد دور للتعليم الديني على المستوى العالي فحسب، بل كانت بالإضافة إلى ذلك دوراً لتعليم الدراسات الإنسانية العربية بغرض تكوين أجيال جديدة من الإداريين الذين كانوا يتخرطون بعد تخرجهم في سلك الإدارة السنية. ولقد حلت هذه الأجيال من الإداريين محل طبقة الكتاب التقليدية واحتلت في ظل الإمبراطورية السلجوقية والدول التالية لها مكانتها جنبها إلى جنب مع حكام الأقاليم والمدن من العسكريين بوصفهم قائمين على الإدارة المدنية. ومع ذلك فإن التمايز بين المؤسسات الدينية والمؤسسات السياسية الحاكمة ازداد وضوحاً رغم ذلك التحالف الذي كان قائماً بينهما. ويرجع ذلك إلى الاعتراف بالسلطنة كنظام دستوري يضطلع بأعباء الإدارة العسكرية والسياسية إلى جانب الخلافة التي هي قمة المؤسسة الدينية (وإن كان تابعا لها من الناحية المثالية). لقد كان نظام الملك نفسه هو الذي أكد هذه الثنائية بعمله على بعث التقاليد الفارسية القديمة في الملك من جديد بمستوياتها الخلقية المستقلة القائمة على القوة والمنفعة⁽¹⁾.

(1) H.A.R. Gibb, Studies on the Civilization of Islam PP. 23-24

لقد كان لكتاب نظام الملك - "سياستنامه" - تأثير قوى على كتب أخلاق الطبقة الحاكمة التي ظهرت بعده في الأدب الفارسي وبصفة خاصة على كتاب الغزالي "نصيحة الملوك" فيما يتصل بالصياغة الإسلامية لتقاليد الحكم الفارسية القديمة. فقد ألف نظام الملك كتابه سنة ٤٨٤هـ قبل موته بعام واحد. وكان ذلك استجابة لطلب من ملكشاه السلجوقي وجهه إلى كبار مستشاريه أن يؤلف كل منهم رسالة في شئون الحكم يبين فيها، ما في تنظيم المملكة وإدارتها من أوجه القصور وما يمكن أن يكون قد استحدث فيها من مبتدعات أو قد تتوسى من السنة القديمة الحسنة - وقد لقيت الرسالة التي كتبها نظام الملك (وهي التي أصبحت فيما بعد كتابه المشهور "سياستنامه") أكبر قدر من الاستحسان من قبل ملكشاه الذي قال إن كل ما ورد فيها من موضوعات قد عولج كما ينبغي أن يعالج حتى إن شيئاً آخر لا يمكن أن يضاف إلى هذا الكتاب الذي سيتخذ مرشداً له يسير عليه^(١). وهذا الكتاب الذي يعالج موضوع الملك وواجبات الحكام وحقوقهم بالإضافة إلى مختلف الموضوعات الإدارية وآداب السلوك يشتمل على مقترحات للإصلاح اعتمد المؤلف فيها على ما جرى عليه العمل في إيران القديمة من ناحية وعلى تجربته الخاصة في الحكم والإدارة من ناحية أخرى. إنه يعرض وجهة النظر الفارسية القديمة بلغة إسلامية، فهو يؤكد

(1) Edward G. Brawne, A Literary History of Persia, II, P. 213.

تذكرنا هذه القصة بقصة مشابهة تروى حول تأليف بزرجير نصحته للملك الساساني أنو شيروان. حيث روى أن الملك طلب من أصحابه أن يقدموا له نصيحة مستقاة من تجربتهم وعلمهم ينتفع بها في إدارة ملكه. ولكن نصيحة الوزير الأكبر (بزرجير) هي التي حازت على رضا الملك فأمر أن تكتب بماء الذهب (قارن : ظفرنامه Chreslomatic pesane ج ١، ص ٢) فالتشابه بين القضيتين واضح.

- على سبيل المثال - أن الملوك مختارون من الله تعالى^(١) الذي يمنحهم النور الإلهي^(٢) وأن حقهم في الطاعة واجب ديني مطلق مفروض على رعاياهم^(٣). وبهذه الطريقة بضمن نظام الملك تحقيق المثل السياسي الفارسي القديم الأعلى وهو استقرار الحكم وتأكيد سلطان الحاكم الذي كان يعد في إيران القديمة. رأس الأمر كله. والوسيلة التي لا غنى عنها لتأكيد ذلك هو عدم انفصام الملك عن الدين^(٤)، وهو مثل أعلى آخر في السياسة الفارسية القديمة وقيام الحاكم بواجبه الأول وهو إقامة العدل بين الرعية^(٥) دون إشارة من نظام الملك إلى أن ذلك ينبغي أن يكون عن طريق تطبيق الشريعة كما كان يتوقع منه. وبالرغم من أن هذه الجوانب وغيرها من التقاليد الفارسية السياسية القديمة توجد مثبتة في كثير من كتب الأخلاق السياسية في الأدبين العربي والفارسي قبل "سياستنامه" فإن نظام الملك كن أول من صاغها في شكل نظرية سياسية إسلامية كان لها تأثيرها الواضح على الغزالي في "تصيحة الملوك".

* * * * *

يعد "تصيحة الملوك" من أوضح الكتب وأوفاهها عرضاً للنظرية السياسية الإيرانية في الملك مفسرة تفسيراً إسلامياً. فهو يعكس ما سبقت الإشارة إليه من صلة بين المؤسسات الدينية والمؤسسات السياسية في الحياة الإسلامية المعاصرة تلك الحياة التي تأثرت بدورها تأثيراً كبيراً بالتقاليد السياسية الإيرانية. ولقد تأثر الغزالي في "تصيحة الملوك" بأراء نظام الملك في "سياستنامه". فقد كان الغزالي يكن أكبر قدر من الاحترام لنظام الملك، وإدراك أهمية الدور

(١) سياستنامه (طهران ١٣٣٤ هـ - شمس) ص ٥-٦.

(٢) نفس المرجع، ص ٦٤.

(٣) نفس المرجع، ص ٦.

(٤) نفس المرجع ص ٦٣.

(٥) نفس المرجع ص ٥-٦.

السياسي والإداري الخطير الذي قام به هذا الوزير في ظل حكم السلاجقة. بل لقد أسهم الغزالي في بعض أوجه النشاط التي اضطلع بها نظام الملك، لا عن طريق التدريس في المدرسة النظامية فحسب - حيث كان يتم تدريب من يقومون بأعباء الإدارة في الدولة كما مر - بل كذلك عن طريق مناقشة الأوضاع السياسية المعاصرة في كتبه بطريقة تتفق وسياسة هذا الوزير. ومن بين القضايا المعاصرة آنذاك التي احتلت مركز الصدارة في اهتمامات الغزالي وضع الخلافة العباسية وعلاقتها بالسلطة السلجوقية من ناحية وبالباطنية والخلافة الفاطمية في مصر من ناحية ثانية. ففي عدد من مؤلفاته مثل "إحياء علوم الدين" و"الاقتصاد في الاعتقاد" و"المستظهر" رفض الغزالي الاعتراف بالخلافة الفاطمية رفضاً قاطعاً مؤكداً الحق الشرعي في الإمامة للخليفة العباسي معترفاً بالإضافة إلى ذلك بالسلطان السلجوقي بوصفه مالكا وحده لسلطة "الحل والعقد" يتم تنصيب الخليفة شرعا ببيعته. ويبدو من "تصيحة الملوك" أن الغزالي كان متردداً في مناقشة مثل هذه القضايا الدستورية في هذا الكتاب. وربما يرجع ذلك إلى أنه في الوقت الذي كان يكتب فيه الغزالي "تصيحة الملوك" كانت كتب أخلاق الطبقة الحاكمة قد اتخذت لنفسها شكلاً ثابتاً في الأدبين العربي والفارسي، كما حددت موضوعاتها بطريقة لا تسمح بمناقشة قضايا ذات طابع دستوري فيها. ولذلك فليس من المستغرب أن لا يتضمن "تصيحة الملوك" أية وصايات تتصل بوجوب المحافظة على ما ينبغي أن يكون للخليفة العباسي من احترام بوصفه صاحب الحق في رئاسة المجتمع الإسلامي، لأن مثل هذه القضايا لم تكن من تقاليد هذا الجنس الأدبي. ويضاف إلى ذلك أن "تصيحة الملوك" كان موجهاً إلى سنجر حاكم خراسان الذي لم تكن له بالخلافة صلة مباشرة.

غير أن "تصيحة الملوك" تعكس بشكل واضح ذلك التحالف القائم آنذاك بين المؤسسات الدينية - وعلى رأسها الخليفة العباسي - والمؤسسات السياسية - وعلى رأسها السلطان السلجوقي - كما سبقت الإشارة من قبل. فالغزالي يشير إلى الأصل الواحد الذي نشأت عنه التقاليد الدينية والتقاليد السياسية حينما يذكر أن آدم عليه السلام اختار من بين أولاده "شيث" ليكل إليه أمر الدين واختار

"كيومرث" ليكل إليه أمر الدنيا والملك وأمدهما بتعاليم من عنده مكتوبة في أربعين صفحة^(١). وهو - كما سبق - يستخدم رمز شجرة الإيمان التي تمثل جذورها شئون العقيدة وتمثل فروعها الأعمال الإنسانية ومن بينها السياسة^(٢).

وهو يؤمن بأن الحكمة الدينية والحكمة السياسية تتساويان في تثقيف الحاكم وتهذيب نفسه. فهو يضع في البرنامج الروحي الذي يرسمه لسنجر خاصا بأيام الجمع قراءة القرآن الكريم وكذلك قراءة سير الملوك^(٣)، وقراءة كتابه "نصيحة الملوك"^(٤). وهو يؤكد أن الله تعالى أختار صنفين من الرجال الأنبياء والملوك وفضلهم على العالمين. فأرسل الرسل ليرشدوا عباده إلى معرفته وعبادته، وأرسل الملوك لكي يحمي بعض عباده من بعض ووكل إليهم حفظ حياة الناس وأحلهم لذلك محلا رفيعا. وينبغي أن يعرف الناس أن الملك والنور الإلهي منحة من الله تعالى للملوك ولهذا وجب حبهم وأتباعهم وطاعتهم^(٥). وغنى عن البيان أن الإسلام وضع أسس الوحدة الكاملة بين السياسة والدين بحيث تجتمع السلطانان في شخص واحد هو الخليفة كما انعقد على ذلك إجماع الأمة الإسلامية. ولكن نظرية الغزالي هذه في الملك تقوم على أساس الازدواجية بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. فالأولى يمثلها الخليفة والثانية يمثلها السلطان السلجوقي. ولهذا فليس من الممكن القول بأن نظرية الغزالي في الملك مستمدة برمتها من تعاليم الإسلام. ذلك أن هذه النظرية تركز على القواعد الثلاث التالية. أولا أن الملوك مختارون من قبل الله تعالى اختيار اصطفاء. ثانياً أن الله تعالى يمدهم بنور إلهي من لدنه. ثالثاً أن طاعتهم واجب ديني على رعاياهم في كل الأحوال. وهذه القواعد الثلاث هي ذاتها القواعد التي ارتكزت عليها نظرية الملك الفارسية قبل الإسلام. فقد نظر الفرس آنذاك إلى

(١) نصيحة الملوك، ص ٤٢

(٢) نفس المرجع، ص ٨-١

(٣) نفس المرجع، ص ٥٥

(٤) نفس المرجع، ص ٣

(٥) نفس المرجع، ص ٣٩-٤٠

ملوكهم على أنهم مصطفين من قبل الله تعالى الذي أمدهم بالنور الإلهي حتى إن عصيانهم كان يعني عصياناً له تعالى. وينبغي أن لا ننظر وينبض استهجان إلى إرساء الغزالي نظريته في الملك على أسس فارسية قديمة. فقد حال الانقسام بين السلطين الدينية والسياسية في عصره دون تفسير الملك على أساس من الشريعة الإسلامية. بل إن مجرد ذكر الشريعة لا يرد إلا لماماً في "نصيحة الملوك" لأن الدين في نظره أصبح لا يشمل إلا الجانب الروحي من حياة الإنسان المسلم. ومع ذلك يحاول الغزالي أن يزود نظريته الفارسية الأصل بأسس إسلامية بتأييد ما يورد من قضايا وآيات من القرآن الكريم. فلتأييد ما ادعاه من اصطفاء الله تعالى للملوك يقتبس قوله تعالى : "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء مع أن الآية لا تدل على أكثر من أن كل ما يجري في الكون إنما هو بمشيئة الله تعالى^(١). ولتأييد وجوب طاعة الرعية للملوك يقتبس قوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم" والآية تدل على وجوب الطاعة ولكن هذا الحكم عام ورد في السنة ما يخصصه وذلك بخروج الإمام عن طاعة الله تعالى. غير أن الغزالي يستشهد بالآية الكريمة على إطلاق وجوب الطاعة للملوك على الطريقة الفارسية قبل الإسلام^(٢). ولكن الغزالي لم يجد في القرآن الكريم ما يؤيد ما ذهب إليه من أن الله تعالى منح الملوك نورا إلهيا ولهذا بقيت فكرته هذه في "نصيحة الملوك" غير مؤيدة بنص قرآني.

وعلى أي حال، فإن مفهوم الغزالي عن النور الإلهي لا يبدو مطابقاً كلي المطابقة للتراث الفارسي القديم. فالغزالي لا يتصور هذا النور على أنه نور حقيقي. بل هو عنده صفة مركبة تتكون من اثني عشر عنصراً هي : العقل والعلم والذكاء وسرعة الفهم وكمال الجسم وحسن الخلق والفروسية والمثابرة والشجاعة والجرأة والتدبر وحسن الطبع والأنصاف بين الضعيف والقوي ولين

(١) نصيحة الملوك، ص ٦٥

(٢) نفس المرجع، ص ٦٦

الجانب والوقار والتسامح والاعتدال وحسن الرأي وبعد النظر والإطلاع المستمر على سيرة السلف الصالح وسير الملوك وأعمال القدامى منهم⁽¹⁾. وهذه الصفات كما هو واضح - أكثر بكثير من العدد الذي حدده الغزالي وهو اثنا عشر. غير أن بعضها مزدوج فيما يبدو أو ورد مرتين بتعبيرين مختلفين كالتسامح والاعتدال، وكحسن الرأي وبعد النظر، وكشجاعة والجرأة وهكذا. ولعل تمسك الغزالي بهذا العدد يرجع إلى تأثيره بالفارابي الذي ذهب إلى أن الإمام ينبغي أن يتحلى باثنتي عشرة صفة. فهو يقول في كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" إن الإمام الذي هو رأس المدينة الفاضلة والمجتمع الفاضل والعالم المسكون لابد أن يتحلى بالصفات التالية : سلامة الأعضاء. الفهم والخيال، الذاكرة، الحكمة وسرعة الإدراك، حسن العبارة، الرغبة في العلم والقدرة على تحصيله، عدم الاهتمام بالطعام والشراب والنساء واللعب والملذات، حب الحق وكراهية الكذب، الوقار والكرم، احتقار الغنى، حب العدل وكراهية الظلم، وأخيراً الإصرار والجرأة في عمل ما ينبغي أن يعمل. فالتشابه بين الصفات التي أوردها الغزالي على أنها عناصر يتكون منها النور الإلهي وبين الصفات التي عدها الفارابي شروطاً يجب أن تتحقق في الإمام واضح كل الوضوح. ولما كان من المعتقد أن الفارابي قد تأثر في تحديد صفات الإمام بجمهورية أفلاطون وليس بنظرية الفقهاء في الإمامة فحسب فإن من الممكن أن يكون ذلك مؤشراً إلى وجود تأثير إغريقي على مفهوم الغزالي عن النور الإلهي إما بطريقة مباشرة أو عن طريق الفارابي. وأياً ما كان الأمر فإن هذا يكشف عن أسلوب الغزالي في المزج بين العناصر الثقافية المختلفة - على الأقل في "تصيحة الملوك" - فالتسمية هنا فارسية قديمة والمضمون مزيج من الآراء الفقهية الإسلامية والأغريقية وهكذا.

وبتدبر هذه الصفات التي يتكون منها النور الإلهي في رأي الغزالي يتبين لنا أن القيمة الإجمالية لها تتمثل في أنها تعين الملك أو السلطان على إقرار النظام الذي يعد ضرورياً لاستقرار الحكم. ويؤكد الغزالي في اهتمامه باستقرار

(1) F. R. C. Bagley, P. 74 note 2

الحكم أن على الملك أن يكون قويا. أولا لأن خليفة الله القوي العزيز لابد أن يكون مهيبا إلى حد أن رعاياه لا يجروون على القيام إذا رأوه قادما من بعيد. وثانيا لأن الناس لم يعودوا كما كانوا في الأيام للخالية إذ أصبحوا وقد انعدم عندهم للحياء والرحمة. فإذا ما كان السلطان بينهم ضعيفا فإن الدمار الشامل لابد أن يحل بالدين والدنيا معا لأن جبروت السلطان لمدة مئة عام لا يسبب من الدمار ما تسببه ساعة واحدة من جبروت الرعية ضد بعضها البعض. لقد مضى ذلك الزمان الذي كان الرجل الواحد يحقق الأمن فيه للعالم بسوط في يده كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أما اليوم فإن الناس لا يجدي فيهم هذا. فإذا كان للفرد أن يسعى في سبيل عيشه آمنا وأن يأمن الناس بعضهم بعضا فلا بد من القوة التي تبعث الرهبة في النفوس ولا بد من العقوبة التي تؤدي إلى استقرار الأمن^(١).

ولا شك أن استقرار الحكم قيمة عامة حرصت على تحقيقها الأديان والفلسفات والمذاهب، ولكن كل على طريقته. فوسيلة الإسلام لتحقيق الاستقرار تطبيق الشريعة مهما اختلفت الأحوال أو تغيرت الظروف أو تبدلت أخلاق الناس. بل إن تطبيق الشريعة من وجهة النظر الإسلامية وسيلة لتحقيق كل القيم السياسية كانت أو خلقية أو اجتماعية. وليس في كلام الغزالي الفقيه ما يتنكر لذلك. وكل ما هنالك أنه بدلا من الاكتفاء بذكر تطبيق الشريعة أراد أن يلفت النظر إلى الواقع المزير في عصره. فقد رأى الغزالي أن هناك قوي تعمل على زعزعة الاستقرار في عصره. وتتمثل هذه القوى في الباطنية الذين هدد نشاطهم الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية المؤيدة لها وهما المعكسر الذي دافع عنه الغزالي بحرارة. إن اجتماع السمتين الدينية والسياسية في الصراع بين السنة والشيعية زاد من حدته وجعل الغزالي - على زهده - أشد التصاقا به. فبالرغم من أن هذه المشكلة لا تعد من موضوعات كتب الأخلاق السياسية التي تعد "نصيحة الملوك" وأحدا منها فقد فرضت نفسها عليه عند مناقشة الغزالي قضية

(١) نصيحة الملوك، ص ٧٩

استقرار الأمن. ويبدو أن الغزالي كان يقصد الباطنية حين أكد أن أهم صفة تتطلب في الملوك هي صحة الدين معللاً ذلك - على طريقته في المزج بين الثقافات - بالحكمة المشهورة لمؤسسي الأسرة الساسانية وهي أن الدين والملك أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر^(١). ويقول إن على الملك إذا ما سمع بشخص في مملكته يشك في عقيدته فإن عليه أن يستدعيه ويسأله حتى ينتهي الأمر بتوبته أو بإيقاع العقوبة عليه أو بنفيه من الأرض. فبهذه الطريقة تظهر المملكة من الضالين وأصحاب الأهواء ويقوي الإسلام^(٢). ومن ذلك يتضح أن اهتمام الغزالي باستقرار الحكم ليس نابعا من كونه قيمة إسلامية فحسب بل كذلك لأنه رأي فيه الوسيلة الفعالة الوحيدة لإصلاح الأوضاع السياسية السائدة آنذاك.

* * * * *

ويبدو أن النظر إلى الواقع المعاصر كان كذلك وراء كلام الغزالي عن العدل الذي صاغه بأسلوبه المعهود في "نصيحة الملوك" وهو المزج بين العناصر الثقافية المتعددة وإلباسها ثوبا إسلاميا. فهو ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال إن عدل يوم من سلطان عادل خير من عبادة ستين عاما. ويقول إن أحب الناس إلى الله السلطان العادل وإن أبغضهم إليه السلطان الجائر. ثم يروي في هذا الصدد بعض الحكايات والمأثورات بعضها صحيح وبعضها غير صحيح ويقصد بها جميعا أن يبين أن العدل والظلم يجرى بهما يوم القيامة. وفي رمز شجرة الإيمان التي تمثل فروعها الأعمال الإنسانية يولي الغزالي العدل من بينها عناية خاصة ويقول إن أعمال السلطان قسمان ما بينه وبين ربه وما بينه وبين رعيته مؤكدا أن التفريط في الأول يرجى غفرانه أما التفريط في الثاني فلا يغفر أبدا^(٣). ولكن الغزالي - رغم هذا التأكيد على العدل من وجهة النظر الدينية - يشير إلى أن المنفعة السياسية أيضاً تتطلب العدل من السلطان. وينسب إلى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال إن الملك يبقى مع

(١) نفس المرجع، ص ٥٢

(٢) نفس المرجع، ص ٨

(٣) نصيحة الملوك، ص ٨

الكفر ولا يبقى مع الظلم^(١). ويقول إن المجوس حكموا العالم أربعة آلاف سنة ولم يبق ملكهم إلا لأنهم حكموا الناس بالعدل وأبعدوا الظلم عن مملكته فأزدهر العالم في عهدهم. ويزعم أن الله تعالى أمر داود أن يمنع شعبه عن الحديث عن الفرس إلا بخير لأنهم عمروا العالم ليعيش فيه عباد الله^(٢). ويؤكد الغزالي أن الأمن والرخاء يسودان بين الناس بالعدل كما كان الناس في ظل اربشير وفريدون وبهرام جور وكسرى أنوشروان وأن الخراب يعم بسبب الظلم كما كان لأسر تحت حكم الضحاك وأقر أسباب ومن شابههم من الملوك^(٣). وبعد أن يضرب المثل بملوك الفرس السابقين على الإسلام يعرض لهؤلاء الملوك واحدا واحدا ليبين كيف كان كل منهم يعامل رعيته مؤكدا إن جمهودهم في تعمير العالم كاتب بسبب معرفتهم بأنه بقدر ما يسود العدل بعم الخير ويقدر ما يعم الخير تنتسج المملكة وترداد الرعية، ويسرد أقوالهم وحكمهم متخذا إياهم مثلا أعلى في حسن السيرة والعدل بين الرعية. وهكذا يتبين أن طريقة الغزالي في تناول العدل لا تختلف عن طريقته في تناول الملك. فهو في الحالتين يحاول أن يصوغ نظريته صياغته إسلامية غير أن مادة النظرية ومبادئها مستمدة أساساً من التراث الفارسي قبل الإسلام. لذلك أقام الغزالي نظريته في العدل على أساس المنفعة لا على أساس الشريعة كما يتوقع من شخصية ذات مكانة دينية مرموقة مثله. وينعكس هذا على المبادئ العشرة للعدل كما ساقها هو. فهذه المبادئ جميعا خلقية والأخير وحده منها يتصل اتصالا غير وثيق بالشريعة. ذلك أن الغزالي يذكر أن المبدأ العاشر من مبادئ العدل هو حرص الحاكم على إرضاء الناس ويشترط على الفور أن هذا ينبغي أن يتم في حدود الشريعة^(٤).

وبالإضافة إلى التراث الفارسي الذي يعد المصدر الرئيسي للغزالي يبدو أنه يستمد بعض عناصر نظريته في العدل من التراث الأغريقي. فهو ينكر أن

(١) نفس المرجع، ص ٤٠

(٢) نفس المرجع، ص ٤٠-٤١

(٣) نفس المرجع، ص ٤١

(٤) نصيحة الملوك، ص ٢٥

العدل ليس مجرد واجب من واجبات الحاكم وإنما هو قيمة أخلاقية كامنة في الإنسان. ويؤكد أن الحاكم الذي يعدل بين رعيته ويأخذ أعوانه وأهل بيته وأولاده به لا يستطيع أن يصنع ذلك ما لم يقم العدل في قلبه أولاً. ويقول إن العدل يتكون من كبح جماح الغرائز الطاغية والانفعالات والغضب بحيث يصير كل ذلك تحت سيطرة العقل^(١). والغزالي هنا يقتبس من جمهورية أفلاطون الذي رأى أن في الإنسان ثلاث قوى الانفعال وقوة الغضب وقوة العقل وأن صحة الفرد من النواحي الخلقية والعقلية والاجتماعية إنما تتم بسيطرة العقل على القوتين الأخريين^(٢). وكعادته حاول الغزالي أن يكسو هذه النظرية الأغريقية ثوباً إسلامياً فوصف العقل بأنه جنود الله والغضب والانفعال بأنهما جنود الشيطان^(٣). والعدل عنده - كما هو عند أفلاطون - يتمثل في سيطرة العقل على القوتين الأخريين ويضيف أن العدل إنما ينبع من كمال العقل^(٤). ومن الواضح أن النظرية في أصلها الإغريقي ليست نظرية في العدل السياسي وإنما هي نظرية عامة في الأخلاق والمعرفة ولكن الغزالي فسر الاعتدال في تكوين الإنسان بالعدل بمعناه السياسي. وهذا مثل من أمثلة كثيرة لتحرره في معالجة مادته في "نصيحة الملوك" كما أشرنا من قبل. وفي ضوء ذلك يمكن أن نلخص نظرية الغزالي في العدل فيما يلي. إنه يعتمد اعتماداً أساسياً على التراث الفارسي القديم حيث يتحدث عن العدل بمعناه السياسي العملي ويعتمد على التراث الإغريقي حين يتحدث عن العدل بمعناه الخلفي ويحاول أن يظهر ذلك كله في ثوب إسلامي.

* * * * *

(١) نفس المرجع، ص ١٩

(2) The Complete Works of plato (D.U.P. 1961) dayter XIII P.P. 126-135, chapter XIV, PP. 136-139

(٣) نصيحة الملوك ص ١٩

(٤) نفس المرجع، ص ١٩ هامش ٤

وكما تحكم الواقع المعاصر في آراء الغزالي فيما يتصل بمفهوم الملك والعدل تحكم كذلك فيما يتصل بنظرة الغزالي إلى أعوان الملك ومستشاريه وما ينبغي أن يكونوا عليه من صفات. ومن بين سائر أعوان الملك يختص الغزالي بالحديث الوزير والكاتب. وهو يؤكد ضرورة منصب الوزير لأن الملك في رأيه ينجح بمساعدة وزير فاضل كفاء ولا يستطيع أن يستغني عن مشورته وحرصا على المظهر الإسلامي لآرائه يؤيد كلام بالآية الكريمة: "واجعل لي وزيرا من أهلي"^(١). رغم أن كلمة وزير في الآية الكريمة لا ينبغي أن تحدد بمنصب الوزير الذي لم يظهر في المجتمع الإسلامي إلا في القرن الثاني للهجرة. كما يستدل بقول الله عز وجل: "وشاورهم في الأمر"^(٢) مع أن المشاورة لا تقتصر على الوزير، وهي في الآية عامة تشمل المسلمين جميعا أو كل من يستطيع الادلاء بالرأي منهم. ويروي الغزالي أن أردشيرين بابك سئل مرة أي الأصحاب أليق بالملك فقال: "وزير أمين ذكي مخلص تتبادل معه الآراء وتستودع عنده الأسرار"^(٣). وينسب إلى أردشير أيضاً قوله على كل ملك أن يحرص على أربعة وزير أمين وكاتب كفاء وحاجب رحيم ونديم ناصح^(٤). وللغزالي وجهة نظره الخاصة التي تختلف عن بقية كتاب أدب الأخلاق السياسية فيما يتصل بالعلاقة بين الملك والوزير. فأكثر هؤلاء الكتاب ينظر إلى هذه العلاقة نظرة عدم ثقة متبادل ولكن الغزالي يهتم اهتماماً كبيراً بإكرام الوزير وضمان بقائه في منصبه وبذكر الملك دائماً بواجبه نحو حماية وزيره وإكرامه. ويؤكد أن على الملك أن يرفع ثلاثة أشياء في معاملة وزيره أن لا يسارع إلى عقوبته عند الغضب عليه وأن لا يطمع في ماله إذا اغتنى وأن لا يرد له طلباً^(٥).

(١) سورة طه، آية ٢٩

(٢) سورة آل عمران، آية ١٠٩

(٣) نصيحة الملوك، ص ٩٥

(٤) نفس المرجع، ص ١٦

(٥) نصيحة الملوك، ص ٩٥

وينصح الملك بأن يمنح وزيره ثلاثة أشياء أن يسمح له بالدخول حين يطلب ذلك وأن لا يقبل فيه غيبة وأن يشاطره أسراراً^(١). ويرى أن من علاقات سكر الملك بخمرة الملك أن يسند منصب الوزير إلى رجل فقير وأن يبقيه في منصبه حتى يغتني ثم يعزله، لأن الملك بذلك يكون كمن يربي طفلاً حتى يكبر ثم يقتله^(٢). ولا يملك المرء إلا أن يتساعل: أيمن أن يفهم هذا على أنه دعوة للملك إلى أن يغض الطرف عن اختلاسات الوزير؟ ويبدو أن الغزالي يبدي كل هذا الحرص على الوزير وفي ذهنه نظام الملك الذي كان الغزالي يكن له أكبر قدر من الاحترام والإعجاب والذي قال عنه: "إن من عجائب الدنيا قصة البرامكة الذين لم يساوهم أحد في عظمتهم وكرمهم. فقد كان منهم كثير من الحكام وكانت ثرواتهم طائلة وبعد نكبتهم تدهور منصب الوزارة وذهب مجده وبهاؤه حتى أصلح الله تعالى الأمور بعز المملكة نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق الذي رفعه الله إلى مقام وزراء الماضي، بل وإلى أرفع من ذلك إلى حد أنه لا يوجد أحد من بين الأغنياء وأهل العلم وأبناء السبيل والمساكين ومن إليهم ولا نبيل ولا حقير إلا نال من نعمه وإحسانه"^(٣). فالغزالي لم يرص عن عزل ملكشاه المفاجئ لنظام الملك الذي أنهى حياته السياسية الزاهرة في أواخر عمره رغم ما أدى للأسرة السلجوقية من جليل الخدمات. وهكذا انعكس الواقع السياسي المعاصر على آراء الغزالي فيما يتصل بالعلاقة بين الملك والوزير أيضاً.

* * * * *

ويتضح تأثير الواقع السياسي المعاصر على آراء الغزالي في النساء. وهو موضوع عالجه فيما يبدو بوصفه المبدأ الثالث من المبادئ التي اعتقد أن تطبيق العدل لا يتم إلا بها وهو إخلاص خطاء الملك. وبالرغم من أن هذا الموضوع ليس من الموضوعات التي تعالج عادة في كتب الأخلاق السياسية فإن الغزالي يخصص له الفصل الأخير من "نصيحة الملوك" ويلاحظ أن وجهة نظر

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) نفس المرجع، ص ٧٥

(٣) نفس المرجع، ص ١٠٠

الغزالي حول هذا الموضوع مستقاة من الرأي العام آنذاك لا من تعاليم الإسلام كما يتوقع. وهي وجهة نظر لا توصف إلا بالتحامل لأن الخيط الذي يربط بين أجزاء الفصل هو أن النساء - اللاتي يقسمهن عشرة أنواع كل منها يشبه نوعاً من أنواع الحيوان - ينبغي أن لا يكون لهن تدخل في شئون الحياة العامة لأن المنزل هو المكان الطبيعي لنشاطهن حتى إنه ينصح المرأة إذا خاطبت أجنبياً وجب عليها أن يكون ذلك وأن تضع أصعبها في فمها حتى تتغير معالم صوتها انتقاء الفتنة.

ويمكن أن نفهم وجهة نظر الغزالي حول النساء في ظل الظروف السائدة آنذاك أيضاً. إذ يبدو أن الغزالي كان يقوم بحملة ضد تدخل النساء في السياسة ربما وهو يقصد "تركاً نخاتون" التي قامت بدور خطير في مسألة ولاية العرش بعد موت زوجها ملكشاه. وحتى في حياته حاولت أن تتضمن العرش لابنها الطفل. وكان من أبرز معارضيتها في ذلك الوزير نظام الملك الذي وقف إلى جانب الابن الأكبر لملكشاه من زوجة أخرى. وقد انتهى هذا الصراع بعد موت ملكشاه إلى نزاع مسلح أسهم دون شك في إضعاف الإمبراطورية السلجوقية وتمزقها. ولابد أن يكون الغزالي الذي شهد هذا الصراع قد راقب الأحداث بقلق لأنه كان يؤمن أن قوة السلاجقة كانت الوسيلة الوحيدة لتحقيق الاستقرار واستمرار الخلافة العباسية والمذهب السني. وهكذا كان للواقع السياسي المعاصر للغزالي ذلك التأثير الكبير على الآراء السياسية لعالم كبسير وفقه بارز من فقهاء القرن الخامس مما يدل على أن ذلك الواقع كان قد فرض نفسه بعنف على الحياة السياسية الإسلامية في ذلك الحين.

